كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف، في جلسة تكريم الفيلسوف كمال الحاج بمناسبة المئويّة الأولى لولادته : إنّه المؤمن الذي يقرأ معنا ولنا الإنجيل. هذه الجلسة من تنظيم فرع الفلسفة في كليّة العلوم الإنسانيّة وبالإشتراك مع المعهد العالي للدكتوراه في علوم الإنسان والمجتمع، يوم الخميس الواقع فيه ٩ آذار ٢٠١٧، الساعة السادسة مساءً في حَرَم العلوم الإنسانيّة، المبنى A، الطابق الثاني، القاعة ٢٠٦.

أ. إنّ هذه المداخلة لا تُعدُّ دراسة في فكر فيلسوف لبنان كمال يوسف الحاج بقدر ما أعتبرها حاشيةً أُعبّر فيها عن تقديري الشخصي وتقدير الجامعة اليسوعيّة لمعلِّم، وكدت أقول لملفانٍ، من معلّمي وملافنة الفكر اللبناني، إذ وضع معلّمنا معالم في الطريق مضيئة في الفلسفة السياسيّة واللبنانيّة لا ولن يخبو نورُها وها هو في مئويّة ولادته لا يزال صوته يصدحُ على المنابر الأكاديميّة وفي الساحات الثقافيّة، علامة أنّ ما كتبه كمال يوسف الحاج وقاله في زمنه لا يزال يخاطب زماننا وفكرنا ومعاناتنا وقلقنا الراهن.

ما أودّ أن أتطرّق له في هذه الطاولة المستديرة، وهي مستديرة بمعنى أنّها تدور دوران الكرة الأرضيّة التي تبحث عن ذاتها، يتناول حوالي الخمسين صفحة من المجلّد الثاني عشر من المؤلّفات الكاملة[١]، وهو يتضمّن ما سمّاه الناشر المؤلّفات الإيمانيّة. وتلك الصفحات الخمسون نُشِرت تحت عنوان "إنجيليّات" في مجلّة الحكمة في الستّينات من القرن الفائت، وذلك ما لفت نظري فقرأتها وتأمّلتُ فيها مع المتأمّل وتآخيتُ من تصفّحها مع المؤمن وحاولتُ أن أستخرج منها زادًا للطريق، فوجدتُ فيها زادًا وكنزًا، وددتُ أن أكتب عِبرها عن هذا الفيلسوف وأن أخاطبكم به.

الصفحات الخمسون تتضمّن سبع مقالات كناية عن تأمّلات في الإنجيل. وُضعت المقالات الستّ الأولى تحت عنوان "إنجيليّات"، أمّا السابعة فصدرت في مجلّة "الصيحة" تحت عنوان :

---

١. كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد الثاني عشر، **المؤلّفات الإيمانيّة**، منشورات بيت الفكر– أَسَسِيّة كمال يوسف الحاج، الصفحات ٤١ إلى ٩١. تمهيد الناشر يقدّم المعلومات الضروريّة حول مصدر هذه المقالات وأهميّتها.

"مريم العذراء معنا فلا تخافوا". أمّا المقالات المنشورة في "الحكمة" فحملت العناوين التالية : "المجدليّة"، "بطرس"، "إبليس يجرّب يسوع"، "في البدء"، "كلّمهم بالأمثال"، و"أمّا مولد الماسيّا فكان هكذا". ولقد طرحت السؤال التالي على نفسي، إثر قراءاتي المتمهّلة لهذه النصوص : كيف قرأ فيلسوفنا هذه النصوص الإنجيليّة ؟ وما هي الرسالة أو الرسائل التي أراد كمال يوسف الحاج أن يبعث بها إلى شريكه في التأمّل والقراءة ؟

ب. أُشير أوّلاً إلى اهتمام عميق، في هذه التأمّلات، لمعرفة هويّة يسوع المسيح ودَوره عبر علاقته بالأشخاص مثل المجدليّة وبطرس وإبليس وزكريّا والملاك جبريل ومريم العذراء، والأحداث التي عاشها مثل اللقاء في بيت سمعان وخيانة بطرس والعظة من السفينة والمواقف والفضائل التي اتّخذها مثل المحبّة والإيمان والتقوى والطهارة والمغفرة. كمال يوسف الحاج يقرأ الإنجيل في ضوء حدث تجسّد الكلمة ابن الله يسوع المسيح، الحدث المركزي المشكِّل للمسيحيّة، وبالتالي فهو يعتمد قراءة روحيّة مجازيّة تقليديّة نجدُ فيها يسوع المسيح المرجع الأوّل والأخير الذي يمدّ الإنسان بالحياة الوفيرة، فيقول الفيلسوف المتأمّل في "أمّا مولد الماسيّا فكان هكذا": "لقد جاءت ولادة الطفل عنوان الاتّضاع الذي يعيد إلينا الفردوس الضائع" (ص. ٨٨) وأيضًا : "لقد جاء الطفل في المذود شهادة منظورة على ما لا تراه عين ولا تسمع به أذن. جاء دليلاً على بحبوحة العلاء في انكماش الدنيا (...) ومنذ ذلك الحين والعالم مهتم بأطفاله، لأنّ الطفولة بابُ الجنّة" (ص. ٨٩). "ويسوع راز المجدليّة بميزان من السماء"، وهذه السماء حين تريد الأرض، يقول الحاج، "تُفرغ في رِجْس القلوب ملءَ سحابة من الرحمة، فَتَبيضُّ النفوس حتّى تصير كالثلج" (ص. ٤٥). وبطرس سيّد الرسل لم يكن ليعود إلى رشده وأن يعي ما يفعل في نكرانه ليسوع وبالتالي لألوهيّته، لولا ما التفت الربّ يسوع لفتة حبٍّ إليه (ص. ٣٥).

ج. وعندي أنّ موقف يسوع المخلّص هذا الذي لا يُعلِن سوى الحياة والحبّ والغفران، بحسب كمال الحاج في قراءاته الإنجيليّة، يقود الإنسان، موضوع الحبّ، إلى التحوّل والتحوّل الجذري

نحو يسوع المسيح. هكذا نجد في فكر الحاج هذا الهمّ الوجوديّ بأن يحتلّ يسوع المسيح المسيّا المساحة التي تليق به، إذ إنّه هو الذي أُعلِن إبنًا حبيبًا فواكب الجموع ساكبًا في نظراته شرف الكواكب، ومعلنًا في تنقلاته حَبْك الوجود ومفجّرًا من حواشيه نورانية الخير. أماميسوع هذا، يتصوّر كمال الحاج توبة المجدليّة بكلمات مجازيّة رؤيويّة يرى فيها حلّتها الجديدة النهيويّة فيقول : "الحقّ أنّ العذراء كانت تملأ عينيّ المجدليّة في كلّ ما ترى. ويقع حسيسُها في كلّ ما تسمع. وتجلس قريبًا منها في كلّ مَضجَع غاو. وإلاّ فكيف يصحّ الندم ؟ وهل الندم إلاّ يَقظَة العذراء الهاجعة في ثنايا المجدليّة ؟" (ص ٤٥) إنّها نظرة تتجاوز مرتع الخطيئة إلى ما بعد واقع الخطيئة، إذ إنّ هذه الخطئية في المفهوم المسيحي ليست سوى محطّة ضيّقة تعلن الواقع الجديد، واقع الإنسان الجديد الملتحف ثياب القيامة. وعندما تحوّل بطرس إلى الندم باكيًا، صار منذ ذلك اليوم صورة أخرى لعظمة يسوع لأنّه محا خيانته بنظرة الشوق (ص. ٥٣). وحتّى تجربة إبليس لم تكن لإغواء يسوع، يقول الحاج، لأنّ الله لا يجرِّب أحدًا من قِبَله، وإنّما في سبيل تمجيده، أي الانتصار على الشرّ بالقلب النابض بالحياة وبالقيامة (ص. ٥٩). وإن استخدم يسوع الأمثال، فلكي يساعد الإنسان على التحوُّل "فيُتلِفَ خِنزير الجسد، ويُبطلَ وحش الخطيئة ويُسقيَه من عبرات النجوم، ويهيّئَ كَرْمَةً تُؤصَّل في قلوب المساكين (ص. ٧٦) فعندما يستخدم يسوع المثل فهو يريد أن يقرِّب الصعب الإدراك من إمكانيّاتنا فندخل في مكنون السرّ. إلاّ أنّ يسوع ربّما استخدم المثل ليقول لنا أنّ ما أدركناه بالحسّ أحيانًا ربّما كان يخفي أمورًا علينا أن نَجِدّ في التعمّق في فهمها وتأمّلها مليًّا. فالمثل كما يقول "واضعٌ رافعٌ" (ص. ٧٧). والمثل يؤدّي هذه المهمّة، فبعد الموت، ونستطيع القول هنا بعد الموت المجازي، إن أدركنا فهم القراءة الحاجّيّة، أي بعد الموت عن الخطيئة ولباس الإنسان الجيّد، "يَبطُل المثَل، وتصبح السماء تِجاه العين، وحَشْوَ الفؤاد، وطَوْقَ الرَقبَة" (ص. ٧٧).

د. وفي قراءة كمال يوسف الحاج التأمّليّة، مدخل إلى موقف الإيمان بعد موقف التحوُّل من الكبرياء نحو الاتّضاع. موقف الإيمان قاعدته العطش إلى المطلق وإلى الحقيقة وهو عطش لا ترويه المعرفة المنطقيّة الحسابيّة الواقفة على المصلحة وعلى بناء الذات بالذات للذات[٢].

يقول لنا الحاج في تأويل "من البدء" : "راحت الأجيال تتمخّض حتّى نَضِج العمل في وقت لم تصل بنا المعرفة البشريّة إلى أيّ مرفأ أمين." وهذا الميل إلى إيلاء المعرفة البشريّة مرتبة رفيعة لا بل الأرفع"، ترويها بحسب الحاج قصّة السقوط الأولى بعدما حرّم الله على أبوينا الأوّلين أن يأكلا من شجرة معرفة الخير والشرّ. "هنا وضع الميل في عنق الإنسان إلى المعرفة كما وضع النور في العين وهنا ذرّ قرن الشرير" (ص. ٧٠). إذ ذاك صارت "كلمته جسدًا بيننا، يحمل نِيرنا ويعلّمنا المحبّة التي بها يعرف الإنسان إنّه لا يعرف، وبها يقول لهذا الجبل "انتقل"، فينتقل" (ص. ٧٢). وهنا يستشهد الفيلسوف استشهادًا حرًّا بنشيد بولس في المحبّة ليقول "إنّه بهذه المحبّة يعرف الإنسان معرفة متواضعة فلا يتفاخر"، فبالايمان يَبْطُلُ ما هو بعض المعرفة ونعرف كلّ المعرفة"(ص. ٧٢). لذلك يقول المتأمّل لنا في "أمّا مولد الماسيّا فكان هكذا"، "إنّ الإيمان لا يُلقّن بالذاكرة ولا يُدرك بالحرف. الإيمان تجربة من القلب"(ص. ٨٤)، مستذكرًا سارة التي ولدت اسحق رغم تقدّمها في السن فأصبح لإبرهيم أمّة كبيرة. وزكريّا كان إيمانه مهزوزًا فنطق بكلام الشكّ عندما أعلن جبرائيل مشيئة الربّ وأجابه زكريّا بطلب آية من السماء فنال الآية خرسًا للسانه (ص. ٨٥) كمال يوسف الحاج يستعيد هنا بالذات الروحانيّة الشرقيّة التي تدعو إلى رؤية الله في القلب وإلى الاختبار الصوفي الذي دعا إليه معلّمه برغسون حيث إنّ الدين هو اختبار الله في القلب. أمّا أهل الإيمان فإنّهم ينالون اهتمامًا من السماء على الأرض، ومثل

---

٢. يحتوي المجلّد الثاني عشر نصوصًا هامّة متفرّقة، منها قسم يضمّ محاضراته التي تتمحور حول شخص المسيح الذي يبدو مآل كمال يوسف الحاج ومنها : "المسيح في التاريخ" و"بين القوميّة والاشتراكيّة" و"في وجه الإلحاد المعاصر" و"المسيح ولبنان" و"المسيح والكاهن"... لا يتردّد كمال يوسف الحاج في وصف المسيح الكلمة بأنّه الباب لفهم موقع الأديان الأخرى ومنها الإسلام والقرآن (ص. ١٠٧ - ٢٦١).

ذلك عندما أرسل الله جبرائيل إلى يوسف في الحلم يذكّره بعهد الله مع شعبه بكلمة "لا تخف أن تستمرّ آخذًا" (ص، ٨٧). نستطيع في هذا السياق القول بأنّ الإيمان لدى الحاج، وهو إيمان بشخص يسوع المسيح في انفتاحه على الحياة الثالوثيّة، ليس مجرّد تسليم أعمى، بل إنّه ثمرة معاناة مع الذات التي تتخلّى عن ذاتها وعن اعتباراتها البشريّة الإجتماعيّة، لتصغي إلى كلمة الله وإلى التحقّق من أنّ الأعجوبة هي واقع وناموس "لا ندركه إلاّ بطفولة القلب" (ص. ٨٣). الإيمان هو ناموس وهو تسليم واعٍ يتمّ في الصلاة والحياة التأمّليّة كما الأمر مع مريم العذراء في حين أنّ زكريّا كانت خدمته مرتبطة بالحركات الخارجيّة لا الحركات الإنفعاليّة الباطنيّة، ولذلك لا يسمع الله الذي كان يكلّمه عبر الملاك.

هـ. ويطول الكلام في الكتابة عن قراءة كمال الحاج الإنجيليّة، لأنّه وضع أسسًا قويّة تتلاقى مع إدراك إنسان اليوم لمحدوديّة معارفه ووضعيّتها رغم اتّساعها المتمادي لا بل للخطر الذي تثيره المعارف والعقلانيّات على مصيره وعلى علاقته مع أترابه وخصوصًا المختلفين عنه. ربّما يجدر بنا الأمر إلى توسيع هذه الدراسة للذهاب إلى أبعد، أي إلى قراءة نصوص أخرى لكمال الحاج مثل كتابه "يسوع سيّد التاريخ" (١٩٦٦)[٣]، ومؤلّفه "وكان يسوع المسيح" وهو مخطوط منشور في المجلّد الرابع عشر من المؤلّفات الكاملة[٤].

ويبقى القول إنّ كمال يوسف الحاج يُفرد مكانًا مميّزًا في تفكيره للعذارء مريم حيث إنّ العذراء تُصبح في نظره رمزًا عامًّا لحالة الطُهر التي يكوّنها العماد في قلب المؤمن وفي عمق وجوده. فنذكر ما وصف به المجدليّة التي رأى فيها يسوع المسيح العذراء التي كانت تملأ عينها. فلبنان وهو بلد الثالوث والعذراء، فيه حدثت أولى معجزات السيّد المسيح بطلبٍ من أمّه العذراء

٣. المجلّد الثاني عشر، **المؤلّفات الإيمانيّة**، ص. ١٣١-١٤٩

٤. المجلّد الرابع عشر (من المؤلّفات الكاملة)، **المؤلّفات غير المنشورة**، ص. ١٩١ – ٤٢٤. هي سيرة يسوع المسيح كتبها كمال يوسف الحاج في أكثر من مئتين وثلاثين صفحة شعرًا ونثرًا ونستطيع القول إنّ هذه السيرة هي تأمليّة تفسيريّة وجدانيّة، ربّما "أراد منها الكاتب صهر الأناجيل الأربعة في واحد يجمع بصيغته بين الأدب واللاهوت والفلسفة". راجع التميهد لهذا الكتاب على الصفحة ١٩٢–١٩٣ من المجلّد الرابع عشر.

عندما "حوّل الماء خمرًا في قانا جليلنا وليس في الخارج". وإذا كان هنالك من أعجوبة في استمرار الوجود اللبناني فلأنّ الرابطة قويّة بين مصدر العجائب وبينه، بين العذراء الحارسة ولبنان المحروس. ولا ينسى كمال الحاج في التذكير بأن "العذراء مريم نالت الامتياز بأن يتحقّق التجسّد في حشاها ومنه، حيث نالت الامتياز الذي اشتهت. فلقد لبست أعظم شرف في الزمان إذ أصبحت مَثالاً لبني البشر، لا يعتريها نسيان ولا يشوبها إبهام. عظمتها عظمة النفوس الطاهرة" (ص، ٨٥).

كمال يوسف الحاج في مئويّته الأولى، عظيم في فكره وفي معاناته، وفي حبّه لبنان الميثاق وفي إيمانه الواعي المسيحي.